

التربية على حقوق الإنسان في التراث العربي

أ.د. محمود أحمد السيد

نحاول في هذا البحث أن نبين أهمية التربية على حقوق الإنسان وأن نوضح مفهوم إحياء التراث، وأن نقدم نماذج من التربية على حقوق الإنسان في تراثنا العربي، وأن نتوقف عند ظاهرتي الإيثار وأنسنة الأشياء على أنها سمتان بارزتان من سمات هذا التراث.

أولاً - أهمية التربية على حقوق الإنسان

على الرغم من أن الإنسان في عالمنا المعاصر اكتشف الكواكب في كبد السماء، وسبر أغوار المحيطات،

وعلى الرغم من الجهود المبذولة في مجال حقوق الإنسان على مختلف الصعد الوطنية والإقليمية والدولية من أجل حماية حقوق الإنسان وترسيخها في منأى عن أي تمييز،

وعلى الرغم من أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ينص على وجوب توجيه التربية والتعليم إلى الإنماء الكامل للشخصية الإنسانية والإحساس بكرامتها وإلى توطيد احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية وتمكين كل شخص من الإسهام بدور نافع في مجتمع حر، وتوثيق أواصر التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الأمم ومختلف الفئات السكانية أو الأثنية أو الدينية، ودعم الأنشطة التي تقوم بها الأمم المتحدة من أجل صيانة السلام،

فإن ما نلاحظه على الساحة الدولية يشير إلى أن الإنسان لم يستطع أن يعيش على الأرض إنساناً تتمثل فيه القيم الإنسانية وتتجسد في سلوكياته ممارسة وأداءً، إذ ما يزال الآلاف والآلاف

من البشر في مختلف بقاع الدنيا تنتهك حقوقهم بكل بشاعة وصفاقة: قتلًا بالرصاص بسبب التعصب، أو جوعاً بسبب حرمانهم من الغذاء أو الدواء، أو زجاً بهم في غياهب السجون يكابدون شتى أنواع التعذيب، وما تزال الآلاف والآلاف من أخواتنا تنتهك أعراضهم بكل وحشية، وكم من البشر يحظر عليهم التعبير عن معتقداتهم وآرائهم، ويحرمون من حقوقهم في العمل والسكن وحقوقهم في العدل والمساواة!

ومن هنا كانت التربية على حقوق الإنسان من الأهمية بمكان، لأن هذه التربية تعمل على توعية الإنسان بحقوقه وعياً كاملاً، ويدفعه هذا الوعي إلى حمايتها والدفاع عنها، ذلك لأن الوعي الصحيح بحقوق الإنسان هو الكفيل بالتأثير على العقليات والسلوك والممارسة السليمة. ومن يتعرف حقوقه يصبح أكثر حرصاً على احترام حقوق غيره، كما أن المعرفة الجماعية لحقوق الإنسان تمثل أضمن درع يقي من مخاطر الانتهاكات.

وإذا كان من الصحيح أن الحروب تبدأ في عقول البشر كما جاء في ديباجة إعلان اليونسكو فإن الخطوة الأولى في مكافحة انتهاكات حقوق الإنسان هي إثارة الوعي بمضمون حقوق الإنسان في عقول البشر وإذا كانت حقوق الإنسان تقوم على ثلاث ركائز.

أولهما: ذات صبغة قانونية ومؤسسية وتشمل جملة الاتفاقيات الدولية والتشريعات الوطنية الضامنة لحقوق الإنسان والمؤسسات الدستورية القضائية والنيابية التي تعود إليها مهمة حماية هذه الحقوق.

وثانيهما: تنظيمات المجتمع المدني الإنسانية منها والسياسية والثقافية والاجتماعية والإعلامية، إذ بقدر ما تكون هذه التنظيمات مبنية على أسس ديمقراطية وتمارس نشاطها اعتماداً على أساليب وآليات ديمقراطية بقدر ما تمثل قوة ضغط فعالة على مختلف الجهات التي قد تنتهك هذه الحقوق.

ثالثتهما: تتمثل في مدى القدرة على بث ثقافة حقوق الإنسان على أوسع نطاق، ذلك لأن معرفة الإنسان بحقوقه الأساسية مقدمة ضرورية نحو تمسكه بها، وتمسكه بهذه الحقوق هو الشرط الضروري لوقف انتهاكها. وهذه المهمة هي مسؤولية المجتمع، ذلك لأن التربية مسؤولية اجتماعية وشأن مجتمعي.

فإن الركيزة الثالثة المتعلقة بالتربية على حقوق الإنسان تجيء في مقدمة الأولويات التي ينبغي أن نتوجه إليها العناية في عالمنا المعاصر.

ولكن السؤال الذي يمثل أمامنا: هل التربية على حقوق الإنسان موضوع جديد أم أن له في تراثنا العربي حيزاً ومكانة؟

هذا ما سنحاول أن نتعرفه فيما يلي:

ثانياً - إحياء التراث

غني عن البيان أن تراثنا العربي هو ذاكرة الأمة العربية، وهو عبارة عن رؤية الإنسان العربي إلى واقعه ومجتمعه والكون والمستقبل، وهو تراث غني لم يلقَ العناية التي يستحقها منا.

وتراثنا العربي أغنى من أن يحد بمرحلة حضارية واحدة، فمن بابل وآشور، ومن الفراعنة والبابليين وغيرهم من بناء الحضارة القديمة، ومن الديانات السماوية ينحدر إلينا تراث ضخم لم يلقَ ما هو جدير به، وما هو جدير بنا من تمحيص وتدقيق قبل الرفض أو القبول إبان يقظتنا القومية.

والفرز والتبويب والتصنيف والتوثيق من المهام الأولية الواجبة، على أن تتلوا مباشرة عملية التقويم التحليلي الأمين والبعيد عن الأهواء العارضة، وأخيراً تجيء عملية من أقدس الواجبات وهي ترشيح أكثر عناصر هذا التراث قدرة على الإسهام في تغيير واقعنا باستخدام المنهج العلمي في التفكير.

وتجدر الإشارة إلى أنه لابد من النظر إلى التراث على أنه حياة لاموت، وحركة لاجمود. أليس التراث في بعض جوانبه مجموعة من المثل والقيم والأعمال والمضامين التي نشأت من الماضي القديم وشقت طريقها إلى الماضي القريب، وسافرت إلينا عبر القرون والعصور لتكون خليفتنا وحالنا وكثيراً من مستقبلنا؟

إن علينا أن نأخذ من التراث جزءه العاقل المبدع، ونترك جزءه الأخير الخامل البليد، نأخذ جزءه العاقل المبدع لا لنقف عند مضمونه وفحواه نبدي ونعيد، بل نستخلص منه الشكل كي نملاً مضمون هذا الشكل من عصرنا وحياتنا وخبراتنا.

والواقع ان احياء التراث يعني إعطاءه قيمة وظيفية حاضرة بتحويله إلى مؤثرات فاعلة في حياتنا المعاصرة وفي بناء المستقبل الذي ننشده.

إن إحياء التراث لايعني تقليده، ولا أن نعود بحاضرنا ومستقبلنا فنصبهما في قوالب الأمس البعيد، ولكنه يعني أن نبصر جذور غدنا الذي نريده مشرقاً في الصفحات المشرقة من التراث، وأن نجعل العدل الاجتماعي الذي تكافح من أجله الامتداد المتطور لحلم اسلافنا بسيادة العدل في حياة الإنسان، وأن نجعل قسّمات العقلانية والقومية في تراثنا زاداً طيباً وروحاً ثورية تفعل فعلها في يومنا وغدنا، فبذلك يصبح تراثنا روحاً سارية في ضمير الأمة وعقلها، تصل مراحل تاريخها، وتدفع مسيرة تطورها خطوات وخطوات إلى الأمام، وبذلك وحده يصبح التراث قوة فاعلة وفعالة.

ثالثاً - نماذج من التربية على حقوق الإنسان في التراث العربي

إن جوهر امتنا العربية يقوم على الانفتاح الحضاري الإنساني. من أرضها قامت الفتوحات وعبرها مرت، كما أنها تعرضت لمحن واجتياحات، وبقيت رغم ذلك تقدم للعالم نموذجاً اجتماعياً وإنسانياً يؤكد انفتاح الإنسان على أخيه الإنسان، وظلت تحمل رؤية الحياة المعطاء رؤية الأخوة الإنسانية.

اخترعت امتنا الأحرف الأبجدية وقدمتها للعالم، وبعد أن شقت البحار ناشرة الثقافة، وبعد أن نشأت في رباهها أول الشرائع بدءاً بشريعة حمورابي وانتهاء بشرائع السماء، لانستغرب بعد ذلك ما يقوله "توينبي". "إن لكل إنسان في العالم موطنين: أحدهما مسقط رأسه، والثاني مسقط روحه وجوهره الإنساني" ويعني به بيئة امتنا الحضارية.

وليس عجباً أن تكون الرسائل السماوية التي أسهمت في السمو بالإنسان إلى ذرا الإنسانية السمحة قد وجدت في هذه البيئة الأرض الخصبة لنموها وانتشارها في العالم، لأنها في توقها الإنساني التوحيدي لامست روح هذه الأمة، روح هذا الوجود الحضاري، فوجد فيها تعبيراً عن أشواقه ومثله ونزغته الإنسان، فحملها وبشر به العالم.

ومن يلقي نظرة على تراثنا العربي يجده زائراً بنماذج من التربية على حقوق الإنسان حفاظاً وصوناً واحتراماً، ويجيء في مقدمتها حلف الفضول: إذ اعتاد تجار قريش أكل أموال الناس بالباطل، وقد حدث لرجل يعني أن باع سلعة إلى واحد من بني سهم من قريش، فماطل في دفع الثمن حتى يئس، فاعتلى اليماني مكاناً مرتفعاً وقريش في مجالسها حول الكعبة، ورفع صوته يشكو ظلامته، فمشت قريش بعضها إلى بعض يحركها بنو هاشم، واجتمعت عدة بطون في دار الندوة واتفقوا على انصاف المظلوم من الظالم، وساروا إلى دار عبد الله بن جدعان، وتحالفوا هناك على إبقاء الضيم وهجر العار وأداء الحق، فسمي "حلف الفضول".

وروي أن الرسول (ص) شهد حلف الفضول في دار عبد الله بن جدعان قبل نزول الوحي عليه، وقال بعد ذلك "والذي نفسي بيده لقد شهدت في الجاهلية حلفاً يعني حلف الفضول، أما لودعيت إليه اليوم لأجبت".

ومن المعروف أن العرب في جاهليتهم كانت تستبد بهم أهواؤهم، وأن حقوق الإنسان لم تكن مصونة. ويمكننا أن نتصور حالهم قبل الدعوة الإسلامية من قول جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة يوم أن هاجر إليها مع نفر من رفاقه، إذ قال جعفر عليه السلام مخاطباً النجاشي الذي استفسر منه عن الدين الجديد: "أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام

ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء إلى الجوار، ويأكل القوي منسا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم الله علينا، وأحللنا ما أحله الله لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث".

لقد عملت ثورة الإسلام على تحرير العبيد وتحرير المرأة، والقضاء على الاستغلال، وحققت المساواة بين البشر جميعاً في الحقوق والواجبات، إذ كانت المساجد مدارس يؤمها جميع الناس من مختلف الألوان والأجناس، وبعض الذين يحاضرون لم يكونوا من العرب ولا من اللون الأبيض. والذين أقاموا صرح الحضارة العربية لم يكونوا من جنس واحد. وعلى الرغم من ذلك ظهر نتاج غير العرب منهم باللغة العربية وكان عطاؤهم النثر في إطار العروبة وقيمها البناءة، وكانت حضارتنا أول من طبق مبدأ مجانية التعليم وإلزاميته معاً، فالعلم فرض على كل مسلم ومسلمة، وليس ثمة استثناء بين فرد وآخر في نيل هذا الحق.

وهاهي ذي باقية من المواقف الإنسانية الخالدة في تراثنا العربي:

- في غزوة الطائف سنة ثمان للهجرة، حاصر المسلمون حصن الطائف عدة أيام، ونادى منادي رسول الله (ص): "أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر" وما أن سمع العبيد أجراس الخلاص تأذن بمجيء الحرية حتى سارع العديد منهم إلى الخروج من سجن المجتمع الطبقي ولانوا بشمس الحرية والمساواة".

نزلوا من أسوار الطائف، وهبطوا إلى معسكر الكادحين، فأعتقهم رسول الله ودفع كلاً منهم إلى رجل من المسلمين يموّنه، وارتحل الرسول فرحاً لأنه حقق أمنيته. هو لم يفتح الطائف، لكنه حرر العبيد، وشرع يقول: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

وإذا كانت الثورة قد انضم إليها أناس من فئات مختلفة، بعضهم موسرون يمتلكون عبيداً فإن الرسول حث المؤمنين من أنصار الثورة على عتق العبيد بشئى الطرق، وأمر بإطعام العبد وكسوته طبقاً لحالة مالكه، وأوجب حسن معاملته، وحظر ضربه ومنع إذلاله لعبوديته، وقال: "العبيد إخوانكم" ثم ضرب المثل بنفسه فأعتق مذ كان بمكة عبده زيد بن حارثة وتبناه، وحذا الآخرون حذوه فعولج الرق من منبعه: الفقر والدين.

ثم التفت إلى إلغاء رافد العبودية نتيجة الحرب والأسر، واستطاعت الثورة أن تحقق أحد أهدافها في القضاء على انقسام المجتمع إلى أحرار وعبيد داخل الشعب الواحد قبل أن تتدلع نيران الحرب الأهلية الأمريكية بما يزيد على اثني عشر قرناً.

وحدث الإسلام على حسن تربية الأمة وعتقها والزواج منها. كان لعبد الله بن رواحة أمة سوداء، غضب عليها فطمها، ثم فزع، فأتى النبي فأخبره بخبرها، فقال له النبي: ما هي يا عبد الله؟ قال: يا رسول الله هي تصوم وتصلي وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله "فقال: هذه مؤمنة، فقال عبد الله: فوالذي بعثك بالحق لا اعتنقها ولأتزوجنها" ففعل.

قضت الرسالة الإسلامية على التمييز بسبب اللون أو العنصر. كان من بين زعماء الثورة بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وعمار العربي فلا تمييز بسبب الانتماء القومي أو الانحدار العنصري، وأصبح سلمان الفارسي أميراً على المدائن، وعمار بن ياسر أميراً على الكوفة بعد أن دخلت الثورة إلى أرض العراق.

كل المسلمين متكافئون، كل الثوار متساوون، هم جميعاً متحدون، لافرق في ذلك بين الرومي والعربي والحشي والفارسي، ولا فرق بين الحر والعبد والشريف والوضيع، كلهم أبناء آدم ينصهرون في بوتقة واحدة "ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم".

وها هو ذا النبي (ص) يختم وصاياه فيقول في خطبة الوداع: "أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله اتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى.

- في غزوة مؤتة أوصى الرسول (ص) أصحابه قائلاً: "أوصيكم بتقوى الله ومن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله وفي سبيل الله من كفر بالله، لاتغدروا ولا تغلوا "الغلول: السرقة"، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعته، ولا تقربوا نخلأ ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً".

ولكم نستقي من هذه الوصية دروساً وعبراً في الحفاظ على حقوق الانسان أياً كان وصون البيئة وحمايتها. وفي خلافة علي كرم الله وجهه أمر رجاله في الحرب أن يلتزموا بما يلي: لاتنتهكوا سترأ، ولا تدخلوا داراً، ولا تهيجوا امرأة بأذى". وكان من سيرة علي ألا يقتل مدبراً ولا يجهز على جريح، ولا يكشف سترأ، ولا يأخذ مالا.

وجاء في تراثنا العربي أنه لا عذر في غدر.

- إن معيار التمايز بين الحضارات إنما يقوم على مدى احترام إنسانية الإنسان والحفاظ على حقوقه وكرامته، والنموذج التالي يوضح كيف أن التربية الإسلامية سمت بالإنسان وبوأته المكانة التي هو جدير بها. فلقد غضب أبو ذر الصحابي الجليل من بلال الحبشي العبد الأسود، وتطور النزاع بينهما إلى أن أخذت أبا ذر الحدة، فقال لبلال: يابن السوداء، فشكاه بلال إلى النبي، فقال لأبي ذر: أعيرته بأمه، إنك أمرؤ فيك جاهلية، فقال أبو ذر: على ساعتني هذه من

التعريب العهد الثالث عشر - حزيران/يونيو 1997

كبر السن، فقال له الرسول: نعم هم اخوانكم، فندم أبو ذر وتاب حتى إنه أمر بلالاً أن يطأ على وجهه مبالغة في الندم والتوبة. وكلنا يعلم مكانة أبي ذر عند رسول الله وعنه يقول: ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة منك يا أبا ذر. وعلى الرغم من ذلك لم يجامله، إذ لا تمايز بين الناس بسبب اللون أو العنصر.

وفي عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز شكت جارية سوداء تسمى "فرتونة" إلى الخليفة أن لها حائطاً قصيراً يقتحم منه عليها فيسرق دجاجها، فأرسل عمر فوراً إليها يخبرها أنه أرسل إلى والي مصر يطلب إليه أن يصلح لها حائطها، ويحصن لها بيتها.

فلما وصله الكتاب ركب بنفسه إلى الجزيرة يسأل عن فرتونة حتى عثر على محلها فإذا هي سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به الخليفة، وحصن لها بيتها.

أين هذه المواقف الخالدة مما نلاحظ في حضارتنا المعاصرة من التمييز العنصري والاضطهاد العرقي في أمريكا نفسها: لقد أقامت الولايات المتحدة الأمريكية تمثال الحرية في نيويورك وقد كتب تحته " أعطونا جماهيركم المتعبة الفقيرة التواقعة إلى أن تتنفس الحرية، ابعثوا إليّ بنفاية شاطئكم المزدهم أولئك الذين لا مأوى لهم ولا وطن، فها أنا ذا أرفع مشعلي قرب الباب الذهبي" كلمات رائعة نظرياً. أما الواقع العملي فيخالف ذلك وبالألف!

- نموذج آخر يدل على سمو التربية العربية الإسلامية وتميزها عن غيرها، فلقد روي أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله؟ فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله؟ فكلمه أسامة، فقال له الرسول: "إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.

وهل يمكننا أن ننسى موقف الإمام عليّ كرم الله وجهه عندما عاتب الخليفة الفاروق على تكريمه له يوم أن قدم واليهودي إلى المحاكمة، وأراد الخليفة أن يرحب به ويكرمه قائلاً:

التعريب العدد الثالث عشر - حزيران/يونيو 1997

اجلس ياأبا الحسن" فاكفهر وجهه. وعندما انتهت المحاكمة قال له الخليفة الفاروق: ما لك ياأبا الحسن أراك مكفهر الوجه فأجابه عليّ: ولم تتأديني بأبي الحسن، هلا قلت: أقبل يا علي، فأنا واليهودي على قدم المساواة أمام القانون، فقال له عمر: بأبي أنتم أهل البيت، بكم أخرجنا الله من الظلمات إلى النور.

وهل يمكننا أن ننسى قوله عمر المشهورة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، وذلك عندما وقف إلى جانب المصري الذي ضربه ابن عمرو بن العاص لأنه سبقه في سباق فأمره عمر أن يضرب "ابن الأكرمين" الذي استغل نفوذ والده.

ولقد جسّد بموقفه من جبلة بن الأيهم الذروة في حقوق الإنسان، إذ بعد أن أعلن ابن الأيهم وهو ملوك الغساسنة في الشام إسلامه قدم إلى الحجاز فرحب به الخليفة الفاروق واصطحبه معه إلى الحج. وفي أثناء الطواف حول الكعبة يدوس رجل من بني فزاره إزاره فيغضب ويرفع يده ويهشم له أنفه، ويشكوه الفزاري إلى عمر فيطلب إليه أن يرضي الرجل أو يقبده فيه وكيف يقبده؟ يأمر بهشم أنفه كما فعل هو بغيره. ويحتج جبلة مستكراً هذه المعاملة قائلاً: وكيف ذاك يأمر المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك. فيجيبه عمر بهدوء: دع عنك هذا، إن الإسلام قد جمعك وإياه فليس تفضله إلا بالتقوى والعافية. ويدور بين الرجلين حوار حاد قصير، ويرى جبلة الصديق والتصميم من عمر فيطلب منه مهلة إلى الغد، ينظر في أمره ليلته تلك، ويوافق عمر خشية الفتنة، وما أن ينام الناس ويهدؤوا حتى يتحمل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام ومنها إلى القسطنطينية إلى هرقل ينشد لنفسه ولعرشه الثبات والبقاء.

تجربة عنيفة فيها أكثر من فكرة ومن حادثة: عنفوان الجاهلية، مفهوم البدوي عن الكرامة، سورة الانفعال التي تحدد المواقف، معظم المواقف، الارتداء في أحضان الأجنبي، بل تحت أقدامه حفاظاً على تاج وجاه ونعمة، الغربة القاتلة، الندم المر، الحنين إلى الجذور القومية... إلخ.

- من نتائج التربية العربية الإسلامية في مجال حقوق الإنسان المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، فالمهاجرون قوم تركوا في سبيل الله أموالهم وأراضيهم، فقدموا إلى المدينة وهم لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً، والأنصار مستقرون في بيوتهم وأموالهم بين أيديهم، فليلتفت كل منهم إلى أخيه من المهاجرين، وليفتح له بيته، وليقتسم معه سراء الحياة وضراءها. لم يفعل ذلك أحد من الأنصار وهو مستاء، بل كان يشعر بالسرور والارتياح، وهو ينشد رضا الله، وكان كل منهم يتسابق إلى تقديم العون إلى أخيه بكل حماسة واندفاع وإيمان "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه".

- من المواقف الرائعة للتربية على حقوق الإنسان في تربيتنا العربية أن يتسم الإنسان بالموضوعية واحترام حقوق الآخر وهو في ذروة مواقف الغضب. إذ هنا يتجلى الإنسان الإنسان، فها هو ذا الرسول (ص) بعد فتح مكة يقف من المشركين الذي آذوه وشتموه وأخرجوه من دياره موقفاً مثالياً، فقد قال لهم:

يامعشر قريش ما تظنون أنني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال رسول الله: اليوم أقول لكم ما قال أخي يوسف من قبل لا تثريب عليكم، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فانتم الطلقاء".

وعندما دخل الخليفة الفاروق إلى القدس فاتحاً عامل سكانها بمنتهى التسامح والعفو. ولا يمكننا أن ننسى أيضاً موقف صلاح الدين الأيوبي من أعدائه عندما فتح بيت المقدس، فقد ذبح هؤلاء في داخل المسجد الأقصى سبعين ألفاً من الأئمة والعباد والنساء والأطفال، وبعد دخول صلاح الدين فاتحاً بعد تلك المجزرة عامل مرتكبيها معاملة إنسانية حيث بذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم، وسمح لهم بالخروج لقاء مبلغ قليل يدفعه المقتدرون منهم، وأعطاهم مهلة أربعين يوماً للخروج.

ويذكر الغربيون أنفسهم عن صلاح الدين أنه عندما بلغه مرض ريتشارد قلب الأسد أكبر قواد الحملات الصليبية وأشجعهم، أرسل إليه صلاح الدين طبيبه الخاص يحمل إليه العلاج والفواكه، هذا والحرب بينهما مستعرة وجيشاهما في صراع.

ومن القيم التي عززتها التربية على حقوق الإنسان في تراثنا العربي في أثناء ممارسة مهنة الطب أن يكون الطبيب أميناً في الحفاظ على الأرواح، وألا يصف دواءً قتالاً وألا يعلمه، وأن يعالج عدوه كما يعالج حبيبه بنية صادقة.

وروي أن علياً دعا غلاماً له فلم يجبه فدعاه ثانياً وثالثاً فرآه مضطجعاً فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: نعم، فقال علي: فما حملك على ترك جوابي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال له: اذهب فأنت حرّ لوجه الله تعالى.

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت حسن الخلق؟ قال: من قيس بن عاصم، بينما هو ذات يوم جالساً في داره إذ جاءته خادم له بسفود "وهي حديدة يشوى بها اللحم: وتسفيد اللحم أي نظمه في السفود" عليها شواء حار، فنزعت السفود من اللحم، وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له فقتله لوقتته، فدهشت الجارية، فقال: لاروع عليك، أنت حرة لوجه الله تعالى.

وقال أبو ذر لغلّامه: لم أرسلت الشاة على علف الفرس، قال: أردت أن أغيظك، فقال له: لاجمعن مع الغيظ أجراً، أنت حر لوجه الله تعالى.

ورحم الله شاعرنا إذ يقول:

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

- ومن المواقف التي نعتز بها في تراثنا العربي أن التربية على حقوق الإنسان أرسلت دعائم السلام، وحققت الأمن والاستقرار للمسلمين فحسب، بل لغيرهم من الديانات الأخرى، إذ لم تكن الوظائف تعطى إلا للمستحق الكافي بقطع النظر عن عقيدته ومذهبه، وأينا كيف أن

التعريب العدد الثالث عشر - حزيران/يونيو 1997

الطب في العصرين الأموي والعباسي كان يتولاها غير المسلمين من أمثال "ابن ماسوية، وبختيشوع وابن بنان .. إلخ".

ويقول "مارك سايس" في وصف الامبراطورية العربية الإسلامية في عهد الرشيد: "وكان المسيحيون واليهود والوثنيون والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة".

وعلى هذا النحو كانت الحلقات العلمية الشعبية، إذ كان العلماء فيها على قدم المساواة بصرف النظر عن مذاهبهم ودياناتهم. قال خلف بن المثنى: "لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم في الدنيا علماً ونباهة وهم: الخليل بن أحمد صاحب النحو "وهو سني"، والحميري الشاعر "وهو شيعي" وصالح بن عبد القدوس "وهو زنديق ثنوي" وسفيان بن مجاشع "وهو خارجي" وبشار بن برد "وهو شعوبي، وحماد عجرد "وهو زنديق شعوبي"، وابن رأس الجالوت الشاعر "وهو يهودي"، وابن نظير المتكلم "وهو نصراني"، وعمر ابن المؤيد "وهو مجوسي"، وابن سنان الحراني "وهو صابئي".

وكانوا يجتمعون فيتنشّدون الأشعار، ويتناقلون الأخبار، ويتحدثون في جو من الود لاتكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم".

وإذا كانت التربية العالمية المعاصرة تهدف إلى ترسيخ احترام الرأي الآخر، فإن حضارتنا العربية الإسلامية كانت سباقة إلى تجسيده عملياً وواقعياً على النحو الذي رأيناه من قبل.

رابعاً الأيثار وأسنّة الأشياء

إذ كان شاعرنا المبدع أبو العلاء المعري يقول:

إن شقاً يلوح في باطن البهرة نصف بيني وبين الفقير

ومنه استوحى الشاعر القروي هذا المعنى قائلاً:

من حبة القمح اتخذ مثل الندى يامن قصرت عن الندى يماكا

هي حبة أعطتك سبع سنابل لتجود أنت بحبة لسواك
 حلمت بأن ستصير في خبز القرى فتراقصت للموت نحو رحاك
 وكأنما الشق الذي في وسطها لك قائل نصفي يخص أخاك

فإن التربية العربية الإسلامية قد تجاوزت ذلك إلى الإيثار، ويكاد يكون سمة مميزة في تراثنا العربي انطلاقاً من قوله تعالى:

(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

إن النزعة الغيرية التي ربّى عليها محمد تلامذته كانت مضرب المثل في التفاني والإيثار، فارتفعوا عن أنانيتهم، واندمجوا في جسم المجتمع، وأثر بعضهم بعضاً حتى في أصعب المواقف شدة، فلقد روي عن حذيفة العدوي أنه قال: "كنت أسقي الجند يوم اليرموك، وإذا أنا بابن عم لي بين القتلى فقلت له: أسقيك؟ فأشار إليّ: أن نعم، فإذا رجل آخر يقول: أه، فأشار إليّ ابن عمي أن انطلق واسقه فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم، فسمع آخر يقول: أه، فأشار إليّ أن انطلق إليه فجنّته، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.

ولقد تجاوزت التربية العربية حقوق الإنسان إلى الحيوان والرفق به، فهذا هو ذا عنبرة يؤنس فرسه، إذ يقول:

أحدثه إن الحديث من القرى وتكلأ عيني عنه حين يهجع
 وفي موضع آخر يصور فرسه في أثناء القتال قائلاً:

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرة وتحمم
 لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو يدري الكلام مكلمي

وعززت التربية الإسلامية هذا المنحى في الرفق بالحيوان والرحمة به، فقد تدخل هذه الرحمة صاحبها الجنة، قال رسول الله (ص): "بينما رجل يمشي بطريق إذ اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها، فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماءً ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله: وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر"، كما أن القسوة على الحيوان تدخل النار إذ يقول الرسول: "دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض".

وإذا كانت أنسنة الحيوان تمثل إحساساً مرهفاً فإنها لتؤكد في الوقت نفسه سمو المشاعر الإنسانية تجاه الكون وما فيه من أحياء، فلنستمع إلى الشاعر أبي فراس يخاطب الحمامة وهو في سجنه يثبها آلامه، ويشكو إليها معاناته إذ يقول:

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالى أقاسمك الهموم تعالى

ومن مظاهر الأنسنة أنسنة النبات إضافة إلى الحيوان، فهاهو ذا عبد الرحمن الداخل يخاطب شجرة النخيل لدى قدومه إلى الأندلس هرباً من بني العباس إذ يقول:

ياتخل أنت فريدة مثلي في الأرض نائية عن الأهل

تبكي وهل تبكي مكمة عجماء لم تجبل على جبلي

وتبلغ الذروة أنسنة المصادر الطبيعية في وصف الجبل لدى ابن خفاجة الأندلسي إذ يقول:

وقورٌ على ظهر الفلاة كأنه طوال الليالي مفكر في العواقب

أصختُ إليه وهو أخرس صامت فحدثني ليل السرى بالعجائب

التعريب العدد الثالث عشر - حزيران/يونيو 1997

إن حضارتنا العربية الإسلامية أنست المصادر الطبيعية، فحولت الأشياء إلى أناس يحسون ويتألمون، وتلك هي الذروة في المشاعر الإنسانية الرقيقة، وهل ثمة أروع من أن يكون نسيم الصبا رسول ابن زيدون إلى حبيبته وأن تكون أعين الورد مشاركة له في آلامه تبكي لبكائه وتتألم لما حلّ به من أرق وعذاب؟

وما أبشع أن تتقلب الآية في عالمنا المعاصر فتتحول أنسنة الأشياء إلى تشيئة الإنسان، وإن دل هذا على شيء فأنما يدل على انحسار القيم الإنسانية في ظل الاجتياح المادي!

ما أمر أن يتحول الإنسان خليفة الله على الأرض إلى شيء لا يحس به أخوه الإنسان !

وما أحلى العودة إلى تراثنا العربي نستقي منه الدروس والعبر في الحفاظ على حقوق الإنسان وصون كرامته..!

التعريب العدد الثالث عشر - حزيران/يونيو 1997

مراجع البحث

1. القرآن الكريم.
2. الإمام الحافظ محي الدين أبو زكريا النووي - رياض الصالحين - دار العلم للملايين - بيروت 1972.
3. الحافظ المنذري - الترغيب والترهيب - المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1960.
4. العلامة المناوي - فيض القدير "شرح الجامع الصغير" - مطبعة المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة 1938.
5. شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي - المستطرف في كل مستطرف - المكتب العالمي للبحوث - دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر - بيروت لبنان 1994.
6. الدكتور غالي شكري - التراث والثورة - دار الطليعة بيروت 1979.
7. محمد عمارة - التراث في ضوء العقل - دار الوحدة للطباعة والنشر لبنان - بيروت 1984.
8. الدكتور محمود أحمد السيد - واقع التربية على حقوق الإنسان والديمقراطية في الوطن العربي على مستوى التعليم العالي والمعاهد المتخصصة وآفاقه - مجلة التعريب - العدد الرابع - دمشق 1994.
9. الدكتور محمود أحمد السيد - في قضايا التربية المعاصرة - دار الندوة للدراسات والنشر - دمشق 1992.
10. محمود منقذ الهاشمي مترجم - الإسلام وعالمية حقوق الإنسان - مركز الإنماء الحضاري - حلب 1995.
11. الدكتور مصطفى السباعي - من روائع حضارتنا - المكتب الإسلامي دمشق 1977.